خطبة صلاة الجمعة 31/10/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أخطاء شائعة (29)– المغالاة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

روى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذا أَخْطَأَ خطيئَة، نُكِتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ، فإذا هو نَزَعَ واسْتَغْفَرَ وتابَ، صُقِلَ قلبُه، وإنْ عادَ، زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الذي ذكره الله** ﴿كلا بل رانَ على قُلُوبِهِمْ ما كانوا يكْسِبُونَ﴾ [المطففين: 14]» [الترمذي].

هذه هي الخطبة التاسعة والعشرون، قبل الأخيرة، في سلسلة: (**أخطاء شائعة**).

هدفُ السلسلة السعيُ لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً, وشعارها: (أسرتي سكني ومسؤوليتي)، وخطأً في معاملاتنا المالية مرة أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم يمكن إدراجها في النوعين، وعنوانها: (**المغالاة**)

– شكت امرأةٌ زوجها في خصومة إلى أحد العلماء، وعرضت ما يزعجها منه، وعَدَّدت نقائصه، سألها العالم: هل يمكن أن تذكري لنا بعض محاسنه؟ فأجابت: لا توجد له حسنة واحدة.

المغالاة والأخذ بطرف الأشياء ليس محموداً

- اشتركا في عملٍ صناعي خمساً وعشرين سنة، أحبا بعضَهما محبة كبيرة ولشدَّة محبتهما لبعضهما زوَّج أحدهما ابنته لابن شريكه، ثم حصلت بينهما خصومة تحدث عادة بين الناس، غير أنه لشدة محبته لصاحبه لم يحتمل وقوعها منه، فقاطعه قطيعةً قاسيةً، أنهى خلالها شراكتَهما القديمة، وترك ارتياد الأماكن التي يرتادُها صديقُه، ولم يرضَ صُلحاً معه، وآخِرُ ما أودت به القطيعة أن طلب من ابنه طلاق ابنة الشريك القديم وإلا غضب عليه.

المغالاة والأخذ بطرف الأشياء ليس محموداً

- تغالي أسر بمهور بناتهن فيطلبن أرقاماً من الخيال وتتسامح أسر بمهور بناتهن فيقدمن ابنتهن هدية للشاب لعلمه وأدبه وديانته، وكلا الأسرتين مخطئتان.

والمغالاة والأخذ بطرف الأشياء ليس محموداً

- ينزل سعيد ذو الأربعين سنة إلى عمله كل صباح في الثامنة ويعود مساء في الثامنة، وعندما يدخل البيت يسرع بعد تناول العشاء إلى النت ليتابع أحوال الشركات المنافسة ولعله يجري بعض الاتصالات الهاتفية المهمة لعمله، بينما يبقى أخوه ذو الثلاثين عاماً في المنزل من دون عمل يقول إنه يبحث عن عمل ولا يجد العمل المناسب له، كلا الأخوين مخطئ.

فالإفراط أو التفريط في الأمر ليس محموداً

- تهيم زوجة بزوجها فتناديه يا روحي، ويا قلبي، ويا حياتي ليتك تقبُرني وتُكفنني، حتى إذا غضبت منه أو عليه دعت عليه بالهلاك والثبور وبحمى تفور توصله القبور.

المغالاة والأخذ بطرف الأشياء ليس محموداً

- يتابع أب أولاده في البيت والمدرسة والمسجد والملعب ولا يريدهم أن يتحركوا إلا معه ولا يدخلوا ولا يخرجوا إلا بصحبته، يخاف عليهم الطريق وآفاته، بينما يدع أخوه أولاده يروحون حيث شاؤوا ويصحبون من اختاروا، فلا يراقب ولا يتابع يريدهم أن يتعلموا الحلو والمر من تجاربهم الخاصة.

المغالاة والأخذ بطرف الأشياء ليس محموداً

أيها الإخوة:

المغالاة والغلو: مجاوزة الحد، يقال: غلا السّعر غلاء إذا ارتفع، وغلا الرّجل في الأمر غُلوّاً إذا جاوز حدّه، وغالى في أمره مغالاة: بالغ.

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: 171].

وفي الحديث: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ...» [أبو داود وأحمد عن ابن عباس].

قال العلماء: نهى الشّارع عن الغلوّ والتّشديد نهياً عامّاً في الاعتقادات والأعمال، وأمر بالتوسط.

قال ابن الأثير رحمه الله تعالى في بيان أفضليّة التّوسّط: (**كلّ خصلة محمودة لها طرفان مذمومان: فالسّخاء وسط بين البخل والتّبذير، والشّجاعة وسط بين الجبن والتّهوّر، والإنسان مأمور أن يتجنّب كلّ وصف مذموم، وتجنّبه يكون بالبعد عنه، فكلّما ازداد منه بعداً ازداد إلى الوسط تقرّباً؛ ... ومن كان في الوسط، فقد بعد عن الأطراف المذمومة**) .

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا . . .﴾ [البقرة:143].

عَنْ علي رضي الله عنه، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -ويروى موقوفاً- قَالَ: «**أحبب حبيبك هوناً مَا عسى أن يكونَ بَغِيضَكَ يوماً مَا، وأبْغِضْ بغيضَك هَوناً مَا عسى أن يكونَ حبيبَك يوماً مَا**» [رواه الترمذي].

وعن أسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (**يا أسلم، لا يكن حبك كَلَفاً، ولا بغضك تلفاً**)، قال: قلت: وكيف ذاك؟ قال: (**إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضاً تحب أن يتلف صاحبك أو يهلك**) [رواه البيهقي في شعب الإيمان].

وَقَالَ الْحَسَن: (**أَحِبُّوا هَوْنًا، وَأَبْغِضُوا هَوْنًا، فَقَدْ أَفْرَطَ أَقْوَامٌ فِي حُبِّ أَقْوَامٍ، فَهَلَكُوا، وَأَفْرَطَ أَقْوَامٌ فِي بُغْضِ أَقْوَامٍ فَهَلَكُوا**).

أيها الإخوة:

كتب أحد أساتذة كلية الشريعة يقول: (ما أعجب شأنَنا في الحياة ... نعلم أن بقاءنا فيها محدود وإقامتنا فيها منصرمة، ومع ذلك فإننا لنغرق في الأمل حتى لكأن الخلود من لوازم الحياة، ونسترسل في الطمع حتى لكأن الدنيا قد كتب لها البقاء...

نحب الشيء فنفرط في الثناء عليه والتعلق به حتى لكأنه الحلو الذي لا مرارة فيه، ونكره الشيء فنفرط في النَفرة منه والتشهير به حتى لكأنه المرُّ الذي لا حلاوة معه.

ونعتقدُ الأمر فنتعصبُ له حتى لكأنه الحقُ الذي لا باطل يأتيه، وننكر الفكرة فنحملُ عليها حتى لكأنها الباطلُ الذي لا أثر للصدق فيه.

ذلك هو الإفراط في كل شيء ... يقلب الحقائق، ويجانب الصواب، ويوقع المشكلات، ويقطع الأواصر، ويجلب العداوة والبغضاء).

إن الاعتدال في كل أمرٍ هو ملاك الخير كلِه؛ ولذلك جاء الإسلام بالنهي عن المغالاة في كلِّ شيء.

- نهانا عن المغالاة في رسل الله حتى نزعمَ لهم صفاتِ الألوهية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران:144].

- ونهانا عن الغلو في العبادة حتى ينقطعَ صاحبها عن الحياة ويُرْهِقَ نفسه في السهر والعبادة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن لنفسك عليك حقاً، ولربك عليك حقاً، ولضيفك عليك حقاً، وإنَّ لأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه**» [رواه الترمذي].

- ونهانا عن الإفراط في النفقة أو التفريط فيها: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء:29].

- ونهانا عن اتباع الهوى في معاملتنا للناس، فلا نميل مع صديق ولا نجور مع عدو: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:8].

أورد ابن كثير عند تفسير هذه الآية قال:

(ومن هذا القبيل قولُ عبد الله بن رواحة، لما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم يَخْرُص على أهل خيبر ثمارهم وزرعهم، وذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم عندما فتح خيبر، وتغلّب على أهلها من اليهود، عاملهم على أن يظلوا في أراضيهم يعملون بها، ولهم نصف ما تنتج الأرض، ويعطونه النصف، يرسل لهم كل عامٍ من يَخْرُص الثمار قبل قِطَافها، فأرسل إليهم عبد الله بن رواحة للخرص.

فأرادوا أن يُرْشُوه ليرفقِ بهم، وقدموا له حلي نسائهم وأطفالهم، فقال لهم قولةً في العدل والاعتدال: "**تعلمون يا بني يهود، والله لقد جئتكم من عندِ أحب الخلق إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من أعدادكم من القردة والخنازير، وما يحملني حُبي إياه وبغضي لكم على ألا أعدل فيكم**". فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض.

هذه هي روح الشريعة، اعتدالٌ في كل شيءٍ ووسط في كل أمرٍ، وبذلك سمانا الله تعالى أمة وسطاً).

أنشد بعض الأدباء:

فـــرط التنـــاهي غلـــط　　خـــير الأمـــور الوســـط

أيها الإخوة:

ثلاث يسببن الغلو والمغالاة: الجهل بمواضع الأشياء، وسرعة الانفعال عند نزول القضاء، وصحبة السفهاء.

وعلاجها بأضدادها؛ فمن أراد ترك المغالاة فعليه بثلاثة: اللحاق بمجالس العلم والعلماء، والإكثار من ذكر الله في السراء والضراء، وصحبة أهل التوسط والاعتدال من العقلاء (علم وذكر وصحبة).

أيها الإخوة:

المغالاة في علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية وسائر شؤوننا خطأ، والصواب الاعتدال فيما نحب ونكره، وفيما نعمل وندع، وفيما نأخذ ونذر، وفي من نصادق ونجافي. وخير الأمور أوساطها.

والحمد لله رب العالمين